نحو أدب عربي ملتزم

بقلم أحمد محمد عطية

ان الاديب العربي مطالب اليوم بالالتزام اكثر من اي وقت مضى. فالامة العربية تواجه معركة المصير ، وليس بالسلاح وحده تواجه الامم اعداءها وتخوض معاركها المصيرية ، ولكن بالكلمة ايضا .

لقد خاضت امتنا العربية عدة حروب دامية مع العسكرية الصهيونية العميلة للامبريالية ، وقد جسدت هذه الحروب حقيقة الصراع العربي الاسرائيلي ، ومع خطورة هذه الحروب وما تحملته شعوب الامة العربية من نتائج مروعة للصراع العربي الاسرائيلي لم يكن الادب العربي على مستوى الحرب والصراع ، ولم تنعكس قضية المصير العربي بحروبها ومعاركها على صفحات الادب العربي. كيف تخوض امة حربين داميتين في عشر سنوات ، او ثلاث حروب في عشرين سنة ، ويطرد شعب باسره طردا جماعيا بالارهاب والدم ليحل محله شعب غريب مهلهل يجمع على دفعات من اطراف العالم ـ كيف يحدث كل هذا لامة ما دون ان يزلزل ادبها وينتشله من رقدته الناعمة المتواكلة (١) ؟ وليس صحيحا القول بضرورة مرور فترة كافية على الحرب تسمح للفنان باستيعاب التجربة والتأمل للكتابة ، فاعتقد ان فترة تقترب من ربع قرن على بدء النزاع العربي الاسرائيلي بشكله الحربي كافية لتفرز ادب الالتزام بالقضية وبمعركة المصير .لقد اعتاد ادباؤنا على الكتابة السهلة والانماط السهلة ، وحياة المكاتب والصالونات . والا كم كاتبا من كتاب الحماسة المنبرية وهواة الشعارات ترك حياته الناعمة المطمئنة واحاديث الصالونات والمقاهي والتحق بحياة المناضلين بالدم والنار وجرب الكتابة وسط المعارك ؟ انا اقصى ما فعله كتابنا هو الذهاب في رحلات استعراضية سياحية لجبهة القتال في حالات توقف القتال بالطبع . ان تجربة الادب الفيتنامي الملتزم تعلمنا ان الاديب الحقيقي يناضل اولا ثم يكتب ثانيا ،ومن هنا تاتي الكتابة صادقة لانها صادرة عن معاناة حقيقية للحرب ، ولان الالتزام بالقضية وبمعركة المصير التزام بالفكر والسلوك ايضا. ان الاديب العربي في معركة المصير ملتزم بان يوحد بين فكره وسلوكه وان يناضل اولا ثم يكتب ثانيا كما يفعل زميله الاديب الفيتنامي في معركة المصير الفيتنامية . ان الادب والفن جزء من نضال المقاومة الفيتنامية . ان الاديب الفيتنامي لا يكتب عن المعركة ، انه يكتب منها ويكتوي بنارها ، ويخلق الاديب والفنان فنهما من واقع المعركة وظروفها . ان الاديب مقاتل بالكلمات كما كتب المناضل العظيم هوشي منه بطل حرب التحرير الفيتنامية .

وامامنا نموذج الالتزام العظيم للاديب الفيتنامي الذي يجمع بين الفكر والسلوك ولا يتوقف عند حدود رفع الشعارات دون عناء التطبيق والموقف العملي كما قدمه لنا كتاب « ادب المقاومة في فيتنام » .

لقد الزمت حياة الحرب الاديب الفيتنامي على تقسيم وقته الى ثلاث فترات : الاولى ، لحفر الخنادق التي يعيش فيها المقاتل والكاتب والانسان الفيتنامي اكثر مما يعيش في المنزل . والفترة الثانية للزراعة وانتاج الطعام . اما الفترة الثالثة فهي المخصصة لحرفة الادب حيث يمارس الكتابة بعد الفراغ من اقامة المخابىء والخنادق اولا ثم زرع الارض والحصول على امدادات الطعام التي قد تمثل مشكلة كبرى بسبب صعوبة توصيلها خلال القصف . لقد امضى كل من « نجوين ترانج سانه » مؤلف قصة (العودة) و (نجوين تشن ترانج) مؤلف قصة « رسالة من قرية ماك » امضيا ستة اشهر في زراعة الارز والبطاطا في الهضاب المرتفعة حيث الارض صالحة والطائرات الاميركية دائمة الاغارة بالقنابل . وهذا ما صوره « نجوين تشن ترانج» في قصته « رسالة من قرية ماك » التي لاقت انتشارا كبيرا بين اهل القرى في المرتفعات الجبلية الفيتنامية . وهذا « فان منه داو » شاعر امضى الشهور الطويلة لا يدخل معدته سوى النباتات والالياف. والروائي « انه داك » الذي كتب روايته « دون هات » بينما القنابل الاميركية تدك خنادقه . فكل شيء يكتوي بنار المعركة ، وحتى الرسامون يختبئون فوق فروع الاشجار ويرسمون الابطال والمعارك . ويتلقى الادباء والفنانون الفيتناميون رسائل شكر وهدايا من المقاتلين تكريما لاعمالهم الادبية والفنية المساهمة في المعركة . ويصنع المقاتلون هداياهم من حطام الطائرات الاميركية التي تتحول الى آلات موسيقية ومقاعد للادباء والفنانين في فيتنام المناضلة .

وهذه اقصى درجات التزام الاديب بمعركة المصير ، وقد اطلت في ذكر هذه النماذج من فيتنام لاوضح الصورة المقابلة لدى الاديب العربي في معركته المصيرية ، فالتزام الاديب الفيتنامي يصل به الى وحدة لا تنفصم بين الفكر والفعل والسلوك مع المقاتل الفيتنامي ، بينما ينفصل الاديب العربي عن المقاتل العربي بل تنفصل الحياة العربية عن ميادين القتال العربية انفصالا شبكيا حادا ، ونكاد لا نعثر على اثر للوحدة بين الادب والمعركة الا في بعض كتابات

---

(١) راجع مقال الكاتب : « ومواجهة ادبية ايضا » الاداب ـ ديسمبر ١٩٦٨ .

المناسبات . بل ان الاديب الثوري العربي ينفصل سلوكيا تاما عن ممارسة قضيته الثورية ويتوقف نضاله عند طرح الشعارات .

ولم يقع الاديب العربي في هذا الانفصال الشبكي الحاد عن المعركة وقضاياها الا لانه دأب ـ في معظم الاحيان ـ على الانفصال عن قضايا الكادحين ، فالاديب العربي حتى اليوم لم يعش قضايا العمال والفلاحين والمقاتلين ، ونجد ادب فلاحين عربيا بمعنى ملاك الارض، وفي النادر بمعنى الفلاحين الاجراء الكادحين ، ولكننا لن نجد ادب عمال او مقاتلين . وفي اغلب الاحوال سنجد الاديب العربي ـ ابن الطبقة المتوسطة ـ عاكفا على تقديم ادب الطبقة المتوسطة الى قراء الطبقة المتوسطة . ربما لان الاديب العربي يواجه شعبا تغلب عليه الامية ومجتمعا يتضاءل فيه مستوى التعليم الى حدود الرخص الوظيفية والامية الثقافية .

وفي المقابل نجد ادب العدو الاسرائيلي للاسف نموذجا لادب الالتزام بالقضية الصهيونية الاستعمارية ، لقد وضع الادب الصهيوني الفكرة الصهيونية هدفا يلتزم به ابتداء من رواية تيودور هرتزل « الارض القديمة الجديدة » حتى فوز روائي صهيوني ـ شاموئيل يوسف عجنون ـ بجائزة نوبل عام ١٩٦٦ الى مواجهة معارك المقاومة وخطف الطائرات حديثا . وعلينا الا نخدع انفسنا ونكرر لعبة النعامة التي الفناها كثيرا . فهذا هو الاب الروحي لاعدائنا هرتزل يقول : « ينبغي ان نتعاطى السياسة حتى في الزواج » .

ان خطورة الادب الصهيوني تتمثل في انه كان بمثابة التخطيط الكامل والارهاصات الحقيقية للدعوة الصهيونية وللحلم الصهيوني العنصري . هذه الدعوة الفنية المتخذة شكل الادب لم تكن الا غلافا للدعوة الاكبر ، الدعوة الصهيونية . بل ان الاديب الفلسطيني غسان كنفاني يذهب في كتابه « في الادب الصهيوني » الى حد اعتبار الصهيونية السياسية نتيجة لارهاصات ادبية صهيونية مبكرة ما لبثت ان اندفعت ، بعد ولادة الصهيونية السياسية ، لتصير جزءا اساسيا منها ، تعمل بانضباط تحت شعاراتها وبتوجيه منها ولخدمة اهداف محددة لها سلفا . (راجع دراسة الكاتب « الرواية الصهيونية اعلاميا » الاداب عدد فبراير ١٩٧٢)

ويقيم غسان كنفاني عمل الادب الصهيوني بانه هو الذي عمل على غسل دماغ العالم وتهيئته للاعلام الصهيوني والدعوة الصهيونية والاكاذيب الصهيونية . ولعل اخطر دور للادب الصهيوني هو نجاحه في التسلل الى عقل الغرب وفكره حتى لتحتوى التعليقات السياسية الغربية على جمل كاملة منقولة بنصها من الروايات الصهيونية .

ان اليهود يرموننا في ادابهم بعدم المبالاة ، ويرون ان جماهيرنا بعيدة عن الاهتمام بالمواجهة العربية الاسرائيلية ، واخشى ان يكون لتخلف الادب العربي المعاصر عن معايشة الاحداث والالتزام بالقضية دخل في ذلك .

اننا نواجه شعبا معبأ بكافة وسائل التعبئة الثقافية والمادية . نواجه اقل نسبة اميه ، واعلى نسبة توزيع في الصحف والكتب . ونواجه جماهيرنا العربية المطحونة داخل الارض المحتلة تحت وطأة الاستعمار الصهيوني الامبريالي وجهوده الثقافية لطمس معالم الثقافة العربية ومحو القومية العربية . ان الجنون التوسعي الذي ينتشي به الشعب في اسرائيل ثمرة للادب الصهيوني الملتزم ، بل انه سند الدعاية الصهيونية في الداخل وفي الخارج . اننا نواجه شعبا يجند رجاله ونساءه من سن المراهقة حتى سن الكهولة . ويوالي الحشد الثقافي والسياسي والعسكري لمواجهتنا دائما في الحرب والسلم . لذا فالى جانب التزامنا السياسي والعسكري يتحتم وجود التزام ادبي ايضا .

واذا كان الادب الصهيوني قد وضع الفكرة الصهيونية هدفا يلتزم به ، فعلى الادب العربي ان يعرف أهداف النضال العربي في التحرير والبناء الاشتراكي ويلتزم بها ، اي يلتزم بالنضال من اجل حرية الوطن والمواطن والنضال الاجتماعي ، واقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد ، وتحقيق الحرية بمعانيها السياسية والاجتماعية ، بمعنى منع استغلال الانسان لاخيه الانسان ومنع التسلط والديكتاتورية، وباختصار حرية الفكر والحرية الاجتماعية . فالحرية التي يطالب بها الاديب العربي يجب الا تتوقف عند حدود حريةالفكر وانما يجب ان تمتد ايضا الى الحرية الاجتماعية والى منع الظلم والاستبدادوالاستغلال بكل صورها .

كما ان التزام الاديب العربي يعني اقتناعه بمسئولية الانسان العربي ومقدرته على التحكم في مصيره ومهاجمة كل الدعاوى الرجعية من العدو الظالم والخرافات الى العبث . الم تواجه الرجعية العربية هزيمة يونيو بالتفسيرات الخرافية الميئسة لقدرة الانسان وبذلك غدا الحل في انتظار معجزة تهبط من السماء ، وليس بالنضال الانساني الصلب ؟

ان التخلي عن الالتزام والاستسلام امام قدر قوي يسلب الانسان كل قدراته قد كانا السبب القوي في تخلف الانسانالعربي عن مواجهة واقعه والعمل على تغييره وتقدمه . لقد ارجع الكاتب العربي السوري صدقي اسماعيل ـ في كتابه « العرب وتجربة المأساة » ـ بداية عصور الانحطاط العربية الى فقدان الالتزام قائلا :« منذ ان انحسرت موجة التصميم الحر عن الحياة العربية ، بدأت الظروف تقسو على كل موقف ارادي صادق ، وكانت بداية الانحطاط .. وعلى هذا النحو فان مأساة الانحطاط تتمثل في اعفاء الارادة الانسانية من كل التزام. انها تلجيء الافراد والجماعات الى قواقع صلبة من مظاهر التخفي، تمنحها شيئا من الامن والاستقرار ، ولكنها لا تحررها من التمزق الدفين الذي يمثله شعور الجميع بانهم ضحايا من دون ذنب او جريرة الا انهم غير قادرين الا على الرفض والانهزام ... كان الانهيار ثمرة التنكر لمأساة الواقع والتخلي عن كل التزام ..».

وعلينا ان نفرق بين الالتزام والالزام ، وان نوضح دائما انه ليس ثمة تعارض بين حرية الاديب والتزامه الحر ، وان حرية الاديب جزء من حرية الوطن والمواطن ، وان الالتزام ليس مخيفا الىالدرجة التي يصورها بها أعداء الالتزام الى درجة الاتهام بالعمالة والتبعية والكتابة بموجب القرارات الادارية . واذا كان الالتزام قد صارشعارا يرفعه كل الادباء العرب الآن مثل شعار الحرية ، فعلينا ان نوضح لماذا يلتزم الاديب العربي ، وبماذا يلتزم ، ثم نتطرق الى مناقشة تفصيلية لجوهر الالتزام ووظيفته في الادب والفن وعلاقته بالحرية وبالسلطة وبالتجديد وبالصدق او التبرير وبالفكر والسلوك ، وايضا علاقته بنظرتي الفن للفن والفن للشعب او للحياة او للمجتمع ، ولماذا يتحتم على الاديب العربي ان يختار الالتزام طريقا للنضال في معركة المصير .

ان نظرية الفن للفن ـ التي صاحبت ظهور الرأسمالية وقامت كاحتجاج على سطوتها ومحاولتها تحويل الادب والفن الى سلعة ـ هي التي انتجت فيما بعد كلمة عدم مسئولية الاديب او الفنان وحولت الحرية الى قيمة عليا مجردة وصورت الاديب كرجل عاجز عن تغيير مجتمعه . وفي المقابل نجد ان التزام الاديب نابع من مسئوليته ،وفي الهزيمة وامام معركة المصير لا يكون الادب ترفا او مجرد تصوير محايد للعالم فحسب بل مسئولية وتصوير ابهدف الى التغيير والثورةوالتقدم. والتزام الاديب لم يعد امام شعبه فحسب بل امام العالم باسره في عصر استحالت فيه العزلة بين المجتمعات بفضل ثورة المواصلات وما كفلته من سرعة الاتصالات بين المجتمعات الانسانية المختلفة .فيجب

ان يعيش الاديب العربي قضايا عصره ويقف بجانب حرية الشعوب وضد الامبريالية والاستغلال والحروب الاستعمارية ومع حروب التحرير وقضايا التحرر الوطني والاشتراكية . وبنفس الدرجة عندما تخوض شعوبنا العربية حربها التحريرية ومعركتها المصيرية فيجب ان نمزق كل المعوقات الرجعية والتقاليد البالية من طريقها . يجب ان يعي الاديب العربي انه يواجه مجتمعا اميا متخلفا مشبعا بالخرافات والاساطير ، يواجه مجتمعا محتلا مهزوما عسكريا ، يجب ان لا يتجاهل هذه الحقائق المؤلمة ، فعن طريق تصويرها ونقدها ينفتح طريق المستقبل المفعم بالامال في بناء مجتمع عربي اشتراكي واحد وحر . فالفن ليس مرآة بليدة لعكس الواقع والا فقد الفن ضرورة وجوده ، ولكنه شيء اساسي في اعادة خلق الواقع وتشكيله من جديد .

ولقد وعى الانسان الاول دور الفن والادب ومسئوليتهما في بناء حياته ومجتمعه . فمنذ الفجر الاول للانسانية استخدم الانسان الفن لتغيير العالم والتقدم به ، من تطوير لادوات العمل الى التنكر الى اغنيات العمل الجماعية ، عرف الانسان الاول ضرورة الفن ووظيفته في تقدم المجتمع الانساني والسيطرة على الطبيعة ، فقد كانت هذه الاشكال الاولى من الادب والفن ضرورة وليس مجرد متعة او تسلية، فرقص الانسان الاول قبل الصيد كان مقدمة ضرورية للشعور بالقوة ورسم الحيوان على الجدران كان وسيلة للتفوق على الحيوان والسيطرة عليه .. وما الى ذلك من ضروب الادب والفن الاولى التي كانت فنونا جماعية يشارك فيها الجميع قبيل الخروج الى عالم الطبقات. وعندما انتقل المجتمع الى الطبقية بدأ الفن يعمل لصالح الطبقة المسيطرة وطبقا لفكرها وايديولوجيتها ، كما تطور الفن من الجماعية الى الفردية تبعا لتطور اشكال المجتمع الانساني .

فالفن ملتزم منذ البدايات الاولى للانسانية وعبر عصور التاريخ. ويؤكد « ارنولدهاوزر » مؤلف كتاب « الفن والمجتمع » ان التاريخ الاجتماعي للفن يؤكد ـ وهذا هو التاكيد الوحيد الذي يستطيع ان يقدم الدليل عليه ـ ان الاشكال الفنية ليست مجرد اشكال نابعة من الوعي الفردي يحددها المجتمع . ولسنا بحاجة الى اعادة التاكيد على دور الادب في تطوير المجتمعات والثورات وليست ببعيدة تجربة الادب الروسي العظيم في نقد المجتمع الروسي المتخلف والتنبؤ بالثورة وتنوير الجماهير حتى تحققت ثورة اكتوبر الاشتراكية .

فدور الادب الحقيقي هو النقد والمعارضة والتنبؤ والعمل على تغيير المجتمع والعالم والتقدم بهما عن طريق اعادة خلقهما فنيا .فنحن نكتب بقصد التغيير والتاثير في المتلقين ، والا لماذا نكتب ونخطط لعملنا الادبي ؟ ليس ذلك طبعا لمجرد الدفقة والتعبير عن الانفعال اوالتامل فالتامل والانفعال والتعبير عنهما لا ياتي الا في كلمات قصيرة .ولكن عندما اكتب بايضاح وتوسع فانما ياتي الايضاح من الرغبة في الافضاء الى الناس بقصد تغييرهم نحو الافضل . وعندما يلجا الكاتب الى تصوير العالم وكشفه وتعريته فهو انما يفعل ذلك بهدف تغييره نحو عالم افضل . وهو حتى عندما يصور المجتمع فلن يكون مجرد ناقل محايد ، ولكن لا بد ان تنعكس ذاتيته وفرديته فلا بد ان ينحاز ولا حياد .وحتى في ميدان العواطف كالحب يستطيع الكاتب ان يؤثر في الناس ويحرك فيهم طاقات الحب الكامنة فيهم او يلفت نظرهم الى الطابع الطبقي للحب في مجتمع طبقي بهدف القضاء عليه والعمل على ازدهار الحب واطلاق طاقاته حرة من كل قيد . فللكاتب هدف من كتابته ليس لمجرد التسلية وشغل الفراغ فهو باقدامه على الكتابة للناس وتصميمه الذهني والفكري المسبقين وبايضاحه المسهب انما يفعل كل هذا من اجل هدف ورسالة فالكاتب يضع الانسان امام مسئولياته ليحركه ويغيره اذ لا يكتب الكاتب لنفسه ـ كما كتب سارتر في « ما الادب » لان صلة الكاتب بالعمل الفني معدومة بمجرد اتمامه . وتاتي صلته الاساسية من اكتشافه الاول لبذور العمل الفني وخلال عملية الخلق الفني.

وبما أن قراءة الاخرين جزء اساسي متمم للكتابة والخلق الفني فتعاون المؤلف والقارىء في مجهودهما هو الذي يخرج الى الوجود هذا الاثر الفكري ، وهو النتاج الادبي المحسوس الخيالي في وقتهما.

فلا وجود لفن الا بوساطة الاخرين ومن اجلهم كما كتب سارتر .واذا كان الكاتب لا يكتب لنفسه وانما يكتب لقراء ، وعندما يكتب لهم عن مسائل تشغلهم فهو ملتزم بالتعبير عن همومهم وآمالهم ، والتزامه هنا ينتج من طبيعة العمل الادبي المكون من كاتب وقارىء .

تلك كلها بديهيات ، وان كانت في مجتمعنا العربي لا تزال في حاجة الى الايضاح والتكرار ، فما زال بعض الناس يتصورون الادب كمتعة وكتسلية وكترف وكحلية ، مع ان اعداء الالتزام لم تعد عداءاتهم موجهة الى ضرورة الالتزام من عدمه ، فعندما تعلو كلمة الالتزام فالكل ملتزمون ، وعندما تعلو كلمة الحرية ، فالكل من انصارها ، مثل كلمة السلام التي اصبحت ستارا لكل اعمال الحرب الامبريالية الهمجية في فيتنام او اعمال العسكرية الصهيونية على الارض العربية . فما من كاتب يعادي الالتزام صراحة ، وحتى اعداء الالتزام يعادون التزاما معينا تحت شعار حرية الاديب كما ان كل النظم تتمسك باعلان الحرية بما في ذلك النظم الفاشية والديكتاتورية . فالالتزام امر مفروغ منه ، ولم يعد السؤال الذي يوجه الى الاديب هل هو ملتزم ام غير ملتزم ، بل السؤال المهم الحيوي هو بماذا يلتزم الاديب ، اما لماذا يلتزم فقد اوضحناه لانه مسئول ولانه يكتب للناس ولا يكتمل عمله الا بهم فهو ملتزم بالتعبير عنهم ونقد مجتمعهم وعالمهم واكتشاف طاقات الامل والطاقات الخلاقة فيهم بغية العمل على تقدمهم . والتزام الاديب ليس التزاما مائعا بمسائل مطلقة ، ولكنه التزام بمسائل محددة وواضحة . فالاديب العربي ملتزم بالحرية والاشتراكية والوحدة ، ولكن هذه الكلمات العمومية يجب تحديدها وتوضيحها فالحرية التي يلتزم بها الاديب العربي حرية محددة بتحرير الاراضي العربية المحتلة من قبل العسكرية الصهيونية العميلة للامبريالية وعدم الخضوع لسياسة الاحلاف ومناطق النفوذ. وهذه حرية الوطن ، والاديب العربي ملتزم بحرية الفكر والعقيدة والنشر والتعبير والابداع لكتاب ولكل الناس ، فهو ضد كل قيود الرقابة والبيروقراطية وصنوف الارهاب الفكري ، والاديب العربي ملتزم بحرية المواطن العربي الاجتماعية بمنع استغلال الانسان للانسان والضمانات الاجتماعية للعمل .

وهكذا فالحرية التي يلتزم بها الاديب العربي حرية محددة وواضحة، وليست الحرية القائمة المعنى المطلقة ، وكذلك الاديب العربي ملتزم بوضوح ببناء مجتمع اشتراكي تؤول فيه الملكية للشعب ويزول فيه التفاوت بين الطبقات بهدف الوصول الى مجتمع لا طبقي ومنع استغلال الرأسماليين الماليين والصناعيين وكبار ملاك الاراضي للانسان العربي . والاديب العربي ملتزم بالعمل من اجل ازالة الحواجز المصطنعة بين اجزاء الوطن العربي الواحد وتحطيم الحدود المفروضة على الوطن العربي بغية تمزيقه وتشتيت طاقاته العربية الكبيرة ،من اجل اقامة مجتمع عربي واحد اشتراكي وديمقراطي .

وتحديد التزام الاديب العربي بهذه الاهداف النضالية ليس الزاما وليس فرضا فوقيا ولا قرارا سياسيا او اداريا ، وانما ينبثق من ضمير الكاتب العربي التقدمي، تحديدا واضحا لانصار التقدم والحرية وعزلا للرجعيين والمتخلفين الذين يعوقون حركة تقدم المجتمع العربي نحو الحرية والاشتراكية والوحدة . ولعل هذا كله يقودنا الى مناقشة الهوة المصطنعة التي دأب اعداء الالتزام على ترديدها بان ثمة تعارضا بين الحرية والالتزام او بين حرية الاديب والتزامه تحت زعم ان الالتزام يقود الى التبعية الحزبية او السياسية ويهبط بالادب الى حدود الدعاية والمباشرة . وقد استمدت نظرية معاداة الالتزام مبرراتها من وقوع الادب والفن تحت السيطرة الادارية

والحزبية السوفياتية خلال فترة عبادة الفرد الستالينية . غير ان هذا كله قد شجب بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وانتهى الى غير رجعة . فالالتزام الذي يختاره الاديب العربي ليس الزاما وليس بدعة ، وفي تاريخ الادب العربي القديم والحديث نماذج عظيمة لالتزام الاديب العربي فكرا وسلوكا ، والا بماذا نصف شعر عنترة بن شداد وسلوكه ومعاركه ؟ الم يستمد الشاعر العربي القديم عنترة صفة البطولة من التزامه المادي والادبي بمعاركه ،معارك القبيلة والناس والدفاع عنهم ؟ وفي الادب العربي الحديث مثل واضح من مصر في الاديب العربي المصري عبدالله النديم شاعر الثورة العرابية واديبها ، الم يكتسب عبدالله النديم بطولته من التزامه الواضح الصريح بقضايا الشعب العربي في مصر وبالالتزام بالثورة العرابية العظيمة فكرا وسلوكا ؟ وقد وجد الكاتب العربي السوري صدقي اسماعيل في تجربتي المتنبي والمعري نموذجين ، لالتزام الاديب العربي القديم بقوله ـ في كتابه « العرب وتجربة المأساة » ـ« ان مشكلة الالتزام امام المأساة هي نقطة البداية في فلسفة المعري ـ كما كانت في تجربة المتنبي ـ فقد نصب نفسه ناقدا للعصر كله ، منذرعا بالبصيرة الواعية التي لا تكتفي بادانة الواقع المثقل بالمتناقضات ،بل تجد في العقل المتحرر دعامة اولى لكل انبعاث في حياة القيم المنهارة، غير ان هذه الدعامة لم تاخذ شكلها الايجابي الذي يمكن ان يمهد لتكوين عقلية جديدة تتبين الانهيار على حقيقته ، بل اخذت اكثر الاشكال السلبية غموضا ويأسا .

وما اكثر الامثلة على التزام الاديب العربي الحر على مر العصور. ان الالتزام رؤية جيدة للواقع وتنبؤ بالمستقبل ، فلا بد للفنان من وجهة نظر محددة يصدر عنها . مثلا كيف يمكن ان يكتب الاديب متجاهلا تواجده في مجتمع محتل متخلف صمم على اتخاذ طريق الاشتراكية ؟ كيف لا يلتزم الاديب العربي بجماهيره وبقضية الاشتراكية ؟ والتزامه بقضية الاشتراكية ليس بمعنى فرض التغني بمشروعات السنوات الخمس فرضا خارجيا ولكن بمعنى انه لا بد ان يصدر من موقف اشتراكي ورؤية اشتراكية واضحة نابعة من ايمان حقيقي وحر بقضية الاشتراكية وقضايا الجماهير . فليس معنى الالتزام بقضايا الاشتراكية هو الالتزام الضيق بآراء حزبية او قرارات سياسية . ولكن المهم ان يكون للفنان موقف واضح ينطلق منه مع قوى التقدم وضد التخلف والرجعية ، فالفنان ناقد ومحتج ومعارض بالضرورة وليس مصفقا او مبررا ، ومن هنا تلزمه حرية الفكر والابداع والنقد . وهذا نموذج حي لالتزام الاديب العربي المصري الصادق نجيب محفوظ . لقد سألت نجيب محفوظ سؤالا واضحا محددا لاتبين موقفه من الالتزام : عندما تكتب هل تضع في ذهنك فكرة سياسية او ايديولوجية لتعبر عنها بالفن ، خاصة انك كاتب سياسي بالدرجة الاولى ؟ فاجابني نجيب محفوظ بصراحته المعهودة : الايديولوجية ليست في عقلي ولكنها في قلبي وانا لا اضعها ولا احركها قبل كتابة قصة او رواية لانها تعيش معي حتى في نومي. وانا قد اكون مهتما بموقف او انسان او مكان ثم تاتي الايديولوجية لتلون الموضوع كله بدون وعي مني . فلا املك ان اكون غير ايديولوجي ولكني لا افكر فيها . فلا اكتب عن الايديولوجية ويصح ان اكتب عن قصة حب ولكن الايديولوجية تعمل في الداخل وفي الخفاء . (راجع مقابلة الكاتب مع نجيب محفوظ ـ مجلة الموقف الادبي العدد السابع اكتوبر ١٩٧١) وهذا هو الالتزام الحر النابع من ضمير الكاتب ومن امتناعه ومن احتضانه لقضايا الجماهير والتزامه بها ، فموقف الاديب الملتزم ياتي من التصاقه بالجماهير وبقضاياها واهدافها وليس بالعزلة عنها .

نقول ان كل كاتب ملتزم بشكل او بآخر ، حتى اعداء الالتزام ملتزمون . ومهما حاولوا الدعوة الى الهروب من الواقع فهم واقعيون بشكل او بآخر . وان يكون الاديب كذلك معناه ان يبدأ باختيار موضوعاته بحرية ، فالحرية هي نقطة البداية امام كل كاتب سواء كان ملتزما ام غير ملتزم .

ان الحرية شرط كل خلق فني . فالكتابة اختيار حر وانتقاء حر من الاديب واصطفاء منه للواقع وكي يصطفي الكاتب عالمه من جزئيات العالم الواقع ، ينبغي ان يصدر في ذلك عن حرية كاملة .ان الاديب الحر يجذب القارىء الحر ، فالكاتب حر في انتقاء موضوعاته ،وكذلك القارىء حر في انتقاء كتبه ، ولان الكتابة عمل مشترك بين الكاتب والقارىء فلن يقدم القارىء بحريته على قراءة عمل كاتب ما لم يكن عمل الكاتب صادرا عن حريته واختياره ومن خلال تجاربه الذاتية ورؤاه الخاصة . فالحرية هي العامل الاساسي والجوهري في الخلق الفني وفي التذوق والتلقي من القارىء المشارك في عملية الخلق . واذا كان هدف الفن هو اعادة خلق العالم من اجل تغييره والتقدم به ، فكيف يتجاهل الاديب العربي عالمه المحتل المتخلف المليء بالمظالم والمآسي والهموم ، وكيف يكتسب ثقة قارئه اذا فعل ذلك ، بل كيف يطمع الاديب الى تحقيق حرية الانسان والمجتمع والعالم باسره اذا لم يكن هو نفسه حرا وكذلك اذا لم يكن عمله الفني صادرا عن حرية ؟واذا كانت الحرية مطلوبة لكل الناس ولكل المهن ، فاولى بها ان تكون ضرورية للكاتب كي يختار ويخلق ويبدع . وكما ان الكتابة عمل يقدم عليه الكاتب باختياره الحر ، كذلك الالتزام مصدره الحرية . ولكن عندما يقرر الكاتب الكتابة فانه يكتب الى جمهور له مطالب ومشاكل وعليه ان يلتزم بها ليصل اليهم . والحرية المطلوبة للكاتب هي حرية النقد الذاتي . ولان الكاتب لا يعمل لدى احد ، وعمله غير منظور وغير يومي وغير داخل في علاقات الانتاج ، لكل ذلك فهو حر ينشد الحرية . فالحرية شرط اساسي ليتمكن الاديب من الابداع والخلق . وفي المجتمعات الديكتاتورية والفاشية التي حرم فيها الاديب من حريته لم ينتج ادب جيد كما حدث للادب في ظل الستالينية والنازية والفاشية .

فالمطلوب هو الالتزام الحر ، وليس الالزام او التبعية المباشرة لرئيس دولة او حزب او مسئول سياسي . الاديب العربي الملتزم ينطلق من مواقف اساسية يتبناها كل اديب تقدمي ، وليس معنى التزام الاديب العربي بقضايا مجتمعه ، واهمها قضية التحرير ومعركة المصير ،ليس معنى هذا ان يتحول عمل الاديب الى نوع من الخطب او المنشورات السياسية او الاعمال الفجة المباشرة واسلوب التقارير الجافة .فكل عمل ادبي يتكون من شكل ومضمون وهما شقان مرتبطان غير منفصلين، ولكن دأب النقاد على فصلهما للايضاح . واذا لم يستكمل العمل الادبي في شكل فني جيد وممتع دون مباشرة او صراخ دعائي ممجوج فان صفة العمل الادبي تسقط عن هذه الاعمال لتتحول الى الوثائق او الخطب او الدعاية السياسية المباشرة . وبنفس الدرجة اذا اقتصر العمل الادبي على الاهتمام بالشكل وتجديده دون تقديم رؤية جديدة في الموضوع اصبح مجرد حذلقة وعملا شكليا خاليا من الحياة ، فالمضمون هو العنصر الاساسي في الفن لانه هو الذي يعطي الفن معنى ، ولكن الشكل مهم ايضا لانه هو الذي يعطي العمل الفني صفته كفن .

ليس الاديب العربي مطالبا ، في سبيل لعبة التجديد ، بنقل اشكال غريبة عن المجتمع العربي وتمثل حضارة ومآزق فكرية مختلفة عن تلك التي يعيشها الانسان العربي . فعلى الاديب العربي ان يتجنب السعي الى الجديد من اجل الجديد ومن اجل الظهور بمظهر الحداثة، ولقد نشأت في مصر مدرسة ادبية جديدة تسعى الى استيراد

الاشكال الغربية الجديدة ونقلها اعتسافا وقسرا الى الادب العربي في مصر ، واعتقد انها فشلت تماما في هذا العمل ، ولم تقدم الا ادب الهذيان والغثيان والانتحار . ان الجديد في الشكل يجب ان ينبع من طبيعة الموضوع ، فلكل مضمون شكله الخاص ولكل فترة حضارية شكلها الخاص ايضا ، وليس دور الاديب العربي ان يقلد كالقرد ، ان آلان روب جرييه مثلا يعيش حضارة الصواريخ والكومبيوتر، فاين نحن منهم ؟ ان الاديب العربي مطالب بالصدق مع مشاكل مجتمعه وعدم الهروب منها الى استيراد الاشكال الاجنبية والاجواء الاجنبية . فتطور الشكل في الادب والفن مرتبط بكل تطور في المجتمع ، وكثيرا ما يكون الشكل الجديد تعبيرا او تنبؤا بتطور جديد في المجتمع ، ومن هنا فان الاديب العربي الملتزم هو وحده القادر على التجديد في الشكل التابع من الالتحام بالموضوع وصدق الرؤية، فالشكل الجديد استجابة ذاتية لمستقبل المجتمع وضرورات التغيير ، ولا يقف في وجه التجديد الا المتخلفون او المتحجرون والرجعيون الذين يحولون الاشكال الادبية والموضوعات الادبية الى اعمال صخرية جامدة ، وتظل الاشكال راسخة ومقدسة حتى يأتي تطور جديد في الموضوع يستلزم تحطيم الشكل القديم وابتكار شكل جديد يتفق مع المضمون الاجتماعي الجديد ، وليست ببعيدة قضية الشعر العربي الحديث ومظاهرة العداء التي وجهت ضده حتى وصل الامر الى اتهام الشعراء المجددين بالخطيئة والزندقة .

والاديب العربي الملتزم يعي جيدا انه لا يكتب لنفسه والا لاحتفظ بكتاباته لنفسه ، انه يكتب الى جماهيره ، ومن ثم فعليه تجنب الغموض ما لم تفرضه طبيعة الرؤى الجديدة والاعمال التجريبية والطليعية - فالوضوح هو شرط كل ادب جيد ، وهو وسيلة الكاتب لجذب الجماهير الى الادب الصحيح الملتزم ، والوضوح لا يعني الهبوط الى مستوى التبسيط والتلقين والتعليم ، فالالتزام الاجتماعي للاديب لا يعني الخضوع للذوق السائد او ان يكتب وفقا للمراسم والقرارات الادارية كتابع ومبرر ، وانما يعني انه لا يعمل في فراغ وانه ملتزم بالمجتمع الذي ينتج من اجله كل اديب وفنان واع بمسئوليته والتزامه .والاديب العربي الملتزم ضد تحويل الادب الى عمل من اعمال التسلية وشغل الفراغ والكسل الذهني وايضا ضد تحويل الادب الى الدعاية والتبرير . فالادب الملتزم ليس هو الادب الممل او الخطابي او التقريري، ولكنه الادب الممتع المتمكن من الوصول الى الجماهير المعبر عنها والمعبر عن المجتمع والمتنبىء والمتشوق لآمال المستقبل . ولا يعني الالتزام نقل صورة احادية الجانب للواقع ، بل نقل الواقع بصدق بخطئه وصوابه، بسلوك الشخصية وآرائها ، وايضا بالبعد عن الصياغة الفكرية المجردة للاعمال الادبية بل من خلال عدم المباشرة والسلوك والموقف . فلا بد من تطابق التصميم الفكري والمعاناة الشخصية . فمهمة الشخصية الادبية الناجحة تجسيد القضايا العامة من خلال امتزاج العام الخاص في سلوك الشخصية ، وامتزاج الملامح الفردية للبطل الادبي بالمسائل الموضوعية العامة ، كما اوضح لوكاش في كتابه « دراسات في الواقعية » وان يعيش الشخص الادبي امام اعيننا نفسها اشد قضايا العصر تجريدا وكأنها قضايانا الفردية الخاصة وكأنها مسألة حياة او موت .

ان يقدم الادب والفن اعمالا واقعية وسياسية امر ضروري، لان السياسة جزء اساسي من الواقع . ولا يعني هذا ان يقدم الادب كتابات سياسية مباشرة يضعف فيها العمار الفني للادب والفن ، فان هذا ابعد ما يكون عن الادب الحقيقي . فالادب الحقيقي هو الادب المستوفى لشروطه الجمالية والذي يعيش الواقع معايشة فنية ويبدع على اساس الموهبة والاقتناع والشكل الفني الممتع . ان الجمال في العمل الادبي لا يعني اغماض العين عن السلبيات والتناقضات داخل المجتمع العربي، ان تصوير القبح في الواقع عمل جميل ايضا وضروري لتغييره ،لان الجمال هو الصدق وتصوير القبح يعني لفت النظر اليه ونقده والدعوة الى محاربته والتطلع الى خلق مجتمع جميل حقا . فالاديب العربي الملتزم مطالب دائما بالنقد وخاصة في فترة تحول المجتمع العربي الى الاشتراكية ، والاديب العربي الملتزم مطالب بالنقد والنقد الذاتي حتى لا يتحول الى التحجر ويصبح مجرد مصفق او مهلل او مبرر. كما ان الالتزام لا يعني تجاهل شخصية الاديب العربي وفرديته ورؤاه الذاتية ، ان الاساس الحقيقي لكل فن هو الصدور من رؤيا ذاتية، والفنان الملتزم هو الذي ينبع رؤاه الذاتية من ضميره الملتزم وتأتلف ذاتيته بموضوعيته ، وموهبته الخاصة بتصوره الموضوعي . فليس هناك خوف من ان يجور الالزام على حرية الابداع الفني للاديب العربي وعلى فرديته ورؤاه الخاصة . والاديب العربي الملتزم له حرية اختيار المذهب الادبي والفني الذي يتفق مع رؤاه الفنية فلا قسر ولا اجبار على مذهب دون غيره من المذاهب . ولكن الادب العربي الملتزم مطالب حقا بخلق ادب قومي عربي يغترف من التراث الايجابي والعلمي والعقلاني ويستبعد منه المتخلف والشعوذ ويرنو الى آداب العالم ودون ان ينقل عنها او ينبهر بها ، بل يجب ان يوجه النقد الى التراث والى الثقافة العالمية ، بل يجب ان تكون للاديب العربي الملتزم نظرة نقدية علمية فلا يستغني عن التقدمي في التراث وفي الادب العالمي القديم والمعاصر.

الاديب العربي الملتزم مطالب ايضا بالتجديد وتطوير الشكل تبعا للتطور في الموضوع وللتغييرات اللازمة في تبني موضوعات جديدة او وجهات نظر جديدة . فالشكل والموضوع متضامنان وضروريان لتقديم كل ادب جديد وكل رؤية جديدة ، ولا يمكن فرض الاشكال القديمة على الموضوعات الجديدة . ولكن التجديد الملتزم يختلف عن التجديد الزائف القائم على النقل والذي يتجاهل ضرورة ان يتبع الشكل الجديد المضمون الجديد ، فالتجديد يتم في المضمون ويتبعه ويلزمه التجديد في الشكل وليس التجديد بهدف الظهور بمظهر الحداثة والهروب من مواجهة الواقع . فكلما تجدد المجتمع ، تجدد الادب.

ومن ثم فالاديب العربي الملتزم بالتعبير عن المجتمع والتقدم به، ملتزم ايضا بابتكار اشكال جديدة تناسب المضامين الاجتماعية الجديدة. اما اعداء الالتزام فانهم يتخلفون عن عملية التقدم عجزا عن ابتكار اشكال جديدة ويتصورون ان الادب يتدهور لانه يتناول الحياة اليومية والصراعات داخل المجتمع وما الى ذلك من المسائل المادية ، وهما وعجزا وجريا وراء سراب المعاني الروحية وجمالية اللغة والشكل . ان هؤلاء الذين يتبرأون من قضايا المجتمع كمسائل دنيا هم اعداء الالتزام، فليس الادب ثرثرة وجملا مجموعة وحلية للزينة . اذ المطلوب في رأي اعداء الالتزام هو الاعتدال وطرق الموضوعات القديمة التي لا خلاف عليها ، اي باختصار الصمت ازاء كل جديد وامام ضرورات التقدم والعمل من اجل المستقبل .

ان آدابنا العربية تتحمل نصيبها من المسئولية ازاء كارثة هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فقد استمرأنا جميعا لعبة النعامة والازدواج في الفكر والسلوك ، والكتابة بآراء مألوفة ومرضي عنها من الانظمة الحاكمة والاحتفاظ بآرائنا الخاصة والحقيقية للهمسات

قراءة الجسد العربي

من يقرأ الوطن العربي في جسدي ، يطالع للخيول
غاراتها ، ويعيد ما جنت الفصول على الفصول
ويطالع الاحقاب بين منازل المدن الشهيدة
حجرية الذكرى ، ويسمع ما تنبأت السيول
في ذلة الفرقى وفي حقل التماسيح الجديدة
وعلى سفائنها وفي مقل الجنود آلتائهين
يتبعثرون على ندائك آه يا وطني السجين
بين المسافات القريبة والنداءات البعيدة
يتمهقرون وخلف صوتك يستقر الأنبياء
ويعلقون الصيف فوق مشاجب رحل الشتاء
عنها واورثها انتظارك غربة الصمت المباح
ويظل يطرحك انتظارك فوق اسمال القصيدة
واظل أصلب فيك ، ابعث والعذارى في البكاء
مطروحة واراك صوتي في المراسيم التليدة

* * *

آواه يا وطني وبين يديك يكتمني اغترابي
وبدهشة الاصوات ، تهرب من فمي ، أجد اقترابي
وبصمتك المجمور في الذكرى وغابات الذهول
وبجوعك المرئي تعتصم المواسم في نيابي
وتقيم في عينيّ ، يعتسف الصدى لون الحقول
واقيم بين الجوع ، بين دماء اهلي والمسيرة
واقيم في جرحي على مدن تعيش بلا ضحايا
واقيم حتى تستقل خطاي صوتك والصبايا
واقيم في عطشي ، وتأتي بالنبوءة والطريق .
القاك يا وطني وتأتيني الضحايا بالكآبه
خبزا وعاصفة ، وتأتيني القوافل بالغرابه
مطرا ، ويأتي الجذر ، المس في يدي وطني العريق

بغـداد

رزاق ابراهيم حسن

والحجرات المغلقة . وباضعف الامور لقد صمت الاديب العربي عما يجري في المجتمع العربيمن خداع وديماجوجية وشارك الاديب العربي بصمته في خداع الجماهير العربية التي ركبها الزهو الفارغوالغرور الكاذب والرؤية الساذجة حتى افاقت الجماهير العربية والادباء العرب ايضا على هول الهزيمة . فالاديب العربي الملتزم مسئول ايضا عن صمته ، فمن واجبه ان يكتب وان يحتج وان يناضل ،وان يوحد بين فكره وسلوكه ، الاديب العربي مطالب اليوم بالالتزام اكثر من اي يوم مضى ، لان الامة العربية تواجه معركتها المصيرية ،وليس اقوى من الالتزام طريقا للادب العربي في المواجهة الشجاعة مع النفسوالالتزام الصادق بالجماهير ، والشجاعه في تبني مواقفها وفي مصارحتها ، وفي شحذ روح المقاومة والنضال . ومن هنا تاتي اهمية الادب في ازالة الافكار المتخلفة المتعارضة مع النضال العربي من اجل الحرية والاشتراكية والوحدة ، وايضا في محاربة كل تشويه لاهتمامات القارىء العربي وتحريفها الى اهتمامات مقامرة كالرياضة التي لعبت دورا اساسيا في صرف المواطن العربي عن قضاياه الحقيقية وتحولتالى نوع من العصبية والقبلية والمقامرة وكالاسفاف في النشر بالصحف العربية وتحويلها الى صحف وفضائح للاخبار الشخصية والعلاقات المنحلة لنجوم السينما والجريمة (كجذب انتباه القارىء العربيالى نماذج غريبة من الناس في البلاد الاستعمارية مثل اوناسيس وجاكلين وساني ومانسون ..) الى غير ذلك من مظاهر الانحراف باهتمامات القارىء العربي وتحويله عن معركة المصير . فالاديب العربي ملتزم ايضا بمحاربة الفكر الرجعي والجمود الرجعي والمثل والنماذج الرجعية والسلوك البورجوازي والرأسمالي . ذلك طريق الاديب العربي للحرية والالتزام . وهكذا فالالتزام ليس فقط لصالح الانسان العربي وحريته، ولكنه ايضا لصالح الاديب العربي في الوصول الى الجماهير العربية وتجديد الشكل من اجل تقديم ادب عربي جديد شكلا ومضمونا .

القاهـرة

احمد محمد عطية

المراجـع

(١) ادب المقاومة في فيتنام ، تران دنه عان واخرون ترجمه غالي شكري، نشر وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٦٩ .

(٢) يوميات هرتزل ـ ترجمة هلدا صايغ ـ نشر مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٦٨ .

(٣) في الادب الصهيوني ـ غسان كنفاني ـ دراسات فلسطينية العدد (٢٢) ـ نشر مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٦٧ .

(٤) العرب وتجربة المأساة ـ صدقي اسماعيل ـ نشر دار الطليعة بيروت الطبعة الاولى ١٩٦٣ .

(٥) ضرورة الفن ـ ارنست فيشر ـ ترجمة اسعد حليم ـ نشر الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر القاهرة ١٩٧١ .

(٦) الفن والمجتمع عبر التاريخ ـ ارنولد هاوزر ـ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ، نشر الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧١.

(٧) ما الادب ـ جان بول سارتر ـ ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال ـ نشر مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١ .

(٨) الرؤيا الابداعية ـ بول فاليري واخرون ـ ترجمة اسعد حليم ـ الالف كتاب العدد ٥٨٨ نشر في مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٦٦.

(٩) الجمال في تفسيره الماركسي ـ أ.أ. بلاشوف واخرون ـ ترجمة يوسف الحلاق ، نشر وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ١٩٦٨ .

(١٠) علم الادب السوفياتي ـ ب . غوريلي ـ ترجمة جلال فاروق الشريف ـ نشر دار الصحافة ـ دمشق ١٩٦٤ .

(١١) دراسات فيالواقعية ـ جورجلوكاش ـ ترجمة الدكتور نايف بلوز. نشر وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ١٩٧٠ .

(١٢) الاشتراكية والادب ـ الدكتور لويس عوض ـ كتاب الهلال الطبعة الثانية ١٩٦٨ .